ما بين

الذهن الالماني والذهن الفرنسي

للدكتور بشر فارس

ان ثمة عبارة دارت على الاقلام وخلصت الى الاسماع حتى أشربت العقول اياها واطمأنت اليها ، ألا وهي قولهم «المنهج الاوربي» La méthode européenne ، عند الكلام على الطرق العلمية فيما يتعلق بالبحث والتنقيب والتأليف . وبعيدٌ ان ينصرف حديثي هنا الى شرح نشأة هذا المنهج وبسط خصائصه . فانما هذا يرجع الى فن المنطق العلمي ثم الى تاريخ الفلسفة ، وقبيح بي ان اطارح قرّاء المقتطف مثل ذاك الحديث فما أظنهم الاّ ولهم عنه غنىً . وانما الموضوع الذي أحب ان اعالجهُ من الفرعيات ، ألا وهو الفرق بين المنهج الالماني والمنهج الفرنسي فيما يختص بالعلوم العقلية ، والذي استدرجني الى معالجة هذا الموضوع اني حصلت الفلسفة وما يلحق بها على أساتذة جامعة باريس ثم اتفق لي ان اشخص الى برلين فاجتمعت بطائفة من علماء الالمان وسمعت عليهم ووقفت على سياقة تآليفهم . فسرعان ما فطنت الى ان بين هؤلاء واولئك وجوهاً من الفرق

ان الكاتب الفرنسي الى الادب ميال ، وان كان عالماً . فتجده يعنى بالمبنى فيحاول ان يقلب العبارة عذبة المدخل الى السمع لطيفة المنفذ الى النفس ، وذلك بأن الفرنسي يقيم للذوق الادبي وزناً عظيماً ، ومن شواهد ذلك ان امثال (تين) Taine و (رينان) Renan و (برجسون) Bergson لهذا العهد من أبعد الكتّاب ذهاباً في تهذيب اللفظ وإحكام السبك . ثم ان العالم الفرنسي لا يحاول ان يكون بحراً فيأبى — على الغالب — ان يجمع الاشتات ويستقصي الاطراف ، بل ربما مال عن الاحاطة بالاصول كلها . فهو خطّاف علوم[1] ، يساعده على ذلك ادراك وثّاب وفطنة متقدة . فان استقامت له بضاعة علمية انطوى على نفسه وجعل يفكّر ، فان ألّف برزت آثار تفكيره فوق آثار علمه : فالمصادر والوقائع عنده وسيلة ، وانما الغاية الخروج بنتيجة سواء كانت حقيقية او نظرية . ثم ان العالم الفرنسي قصير الصبر بحيث انهُ لا ينجذب الى التقصي البعيد والتفتيش المضني نحو اثبات كتب فن من الفنون

وأما العالم الالماني فمن أبعد الكتّاب عن الادب . ولتجدنّ عبارته جامدة ، بل خشنة المطاوي

---

(١) أريد بالخطف الاخذ السريع، دون تمريض ولا تلبيح

سائلة من مذاهب السلامة . ومن اسخرم ان اللغة الالمانية غريبة التركيب بل زائغة عن المنطق اللغوي فيما نرى ، وهنالك علماء يزيدون في تعقيد مبانيها بدراستهم بالاسلوب القديم المحدد قليلاً او كثيراً من جانب اللاتينية . ثم ان العالم الالماني يتعرّف العلم رهمه ان يردّ ذهنهُ موسوعة: فان اقبل على المشرقيات وسلطه اللغة العربية تعلم جميع اللغات السامية ثم التركية والفارسية ، وفي نيّته ان يسبر البحث فيها جميعاً والتنظير بينها . ويعيد ان يكون الرجل كاذب العزم في ذلك فهو يتشبث بالاصول كمثل قواعد اللغة ومناحي التاريخ ، الاّ انهُ لا يكاد يصيب مخلصاً الى نفسه فيخلو بها، ذلك لانهُ اسير العلم وصريع الوقائع : فان ألّف توارى خلف معارفه ، وان اجترأ على بث رأي فكأنهُ يخلف ليدّعمهُ بوثائق لا سبيل عليه لاحد . ثم ان العالم الالماني غوّاص على النوادر ، نقاب عن الدقائق ، ومن الامثلة على ذلك اني قرأت بحثاً للاستاذ « فشير » Fischer — وهو من اعضاء المجمع العربي الملكي المصري — في رسم اسم « امرىء القيس » ، فوقع البحث في مائة صفحة او تزيد، وفي النائم من الشواهد والاشتقات ما لا يدور للذهن ، وما اظن احداً يقوى على ان يخرج شيئاً في هذا الباب بعد ذلك المقال . ومما يعين العالم الالماني على ذلك الجهد جلد متين العرى . فقد عرفت علماء يجلسون الى مكاتبهم اربع عشر ساعة بل ست عشر ساعة، وذلك كل يوم الاّ في النادر . وانك لتلمس هذه العناية بالتدقيق والتمحيص التي تتطلب صبراً ما وراءهُ صبر في مثل كتاب تاريخ الآداب العربية « لبروكلمان » Brockelmann فان هذا المؤلف لايكاد يعدو اثبات المصادر وسياقة التراجم، الاّ انهُ كنز نفاسته في المحل الاول. وعليهِ اعتمد زيدان رحمهُ الله و« نكلسون » Nicholson الانكليزي و« هوار » Huart الفرنسي . وان انت قرأت مؤلف « هوار » هذا في الادب العربي خرجت منهُ برأي شامل ناصع ، ذلك ان الرجل فرنسي ... ولكني اشهد ويشهد غيري انهُ لم يك ليصنع شيئاً لو لم يبذل له « بروكلمان » كتابهُ الغزير مادةً

بقي اني لو سألني سائل من قرائي : فان كان ذلك كذلك فالى المانيا نعمد ام الى فرنسا ارادة التفقه في العلوم الحديثة ، اجبت ، بنا حاجة اليهما جميعاً ، الاّ اني انظر في الذهن المصري أو السوري او العراقي لهذا الزمان فأراهُ الى الذهن الفرنسي اقرب منه الى الذهن الالماني . وقصة ذلك اننا قوم الى الادب منجذبون ، والى خطف العلم ميّالون ، وبنقاد العبر مصابون . ولا شك اننا اذا انطلقنا الى فرنسا تلقينا من علمائها مذاهب المنهج الاوربي ، غير اننا لا يتم لنا ان نجاهد انفسنا المجاهدة كلها . هذا واذا نحن شخصنا الى المانيا اصلحنا معايبنا العقلية بترويض اذهاننا واكراهها على التماس ما تنفر منه . فان خرج الذهن من هذه البلوى فانما اضاف الى مزاياه الفطرية مزايا اخرى مكتسبة لا تقل شأناً عن تلك . . . كل هذا وأنا استثني في هذا المقال الذهن الانجليزي : ذلك الذهن الجبار ، ولي اليه عودة ان شاء الله